# القرآن والعربية

كانت اللغة العربية بين أبناء إسماعيل ، وفوق أرض الدعوة هى لغة الوحى والقرآن ، المنزل بخاتم الرسالات على خاتم أنبيائه محمد ، النبى العربى ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولقد كان بلوغ اللغة العربية هذه الدرجة من الكمال الذى أعدها لنزول القرآن بها حدثا جليلا تميزت به عربية القرآن فى ألسنة قريش ، على أخواتها فى الفصيلة السامية ، وهى العبرية التى كتبت بها التوراة ، والآرامية التى كتبت بها الأناجيل ، فبقى القرآن بكمال لسانه ، وآية بيانه ، على حين أصاب التحريف ما نزل من كلام الله فى التوراة والإنجيل .

لقد شاء الله أن يكون القرآن الكريم هو آيته الكبرى ، الباقية أبد الدهر ، بما جمع من كمال بيانه ، وحجة الله به ، وحكمة الشرع فيه ، وما اشتمل عليه من أخبار الغيب ، ونظم الحياة ، وقصص الرسل ، وبقائه على الزمن محفوظا بلسان عربى مبين ، هداية لكل عصر ، وذكرى للمتقين ، ورحمة للعالمين . .

والمهم أن ندرك أن الله سبحانه لم يرد أن يكون لنبيه الخاتم آية مؤقتة ، بل أرادها آية دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، آية تملك أن توقظ غفلات البشر على اختلاف أوطانهم ولغاتهم ، ومستوياتهم ، فكان القرآن معجزة اللغة والفكر معا .

وإنى لأحب أن أؤكد هنا أن القرآن هو الآية الكبرى والوحيدة

التى أتاها الله لنبيه محمد ﷺ ، وكل ماعداها من معجزات مؤقتة هو من تكريم الله للرسول ، ولسوف يظل القرآن هو الآية البيانية الصوتية ، والكونية والعقلية التى جعلها الله دستور هذه الأمة منذ كانت ، إلى أن ينتهى هذا الخلق الأرضى ، فهى ولا شك أمة القرآن .. صنعتها آياته وتعاليمه ، وارتبط وجودها بوجوده محفوظاً بعناية الله العليم الخبير .

وأما عن سور القرآن الكريم ، فإن من المعلوم أن القرآن يضم بين دفتيه (١١٤) سورة ، فيها (٦٢٣٦) آية ، وقد اقتضى نزول هذا القدر من كلام الله ثلاثا وعشرين سنة ، هى عمر دعوة النبى ﷺ بوحى الله بين قومه ، قضى منها ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشرة أعوام فى المدينة ، وكان الوحى يتنزل عليه كلما دعت إليه حاجة من تشريع ، أو استخلاص درس ، أو بيان حكم ، أو تعاليم ، إلى أن اكتمل على هذا النحو البالغ الكمال ، والله سبحانه يقول فى حكمة نزول القرآن منجما :

« وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » [ الفرقان آية ٣٢ ] .

فإذا نظرنا إلى هذا القدر المنزل من الآيات تبينا أنه أكبر قدر من كلام الله نزل به وحى . ولم تكن التوراة بهذا الحجم ، ولا كان الإنجيل .

ثم إن هذا الكم القرآنى قد ارتبط بالعربية ارتباطاً وثيقاً . يتجلى به كماله اللغوى ، على حين أن التوراة والإنجيل كانا بلهجتين من لهجات الفصيلة السامية العامة هما : العبرانية ، والآرامية ، ولعلهما كانا بالنسبة إلى العربية كشأن لهجاتنا العامية فى الأقطار العربية المختلفة فى هذا العصر .

إن القرآن كما سبق لم ينزل جملة واحدة ، بل جاء منجما مفرقا على تتابع السنوات الثلاث والعشرين ، وحجم كهذا ، يتم نزوله فى زمن كهذا . كان يتوقع أن يختلف أوله عن آخره ، وأن ينقض بعضه بعضا ، وهذا مالم يحدث فى القرآن ، فقد جاء كما وصفه الذى أوحى به :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » [هود آية ١] .

وهو تكامل وإحكام لا يمكن أن يتحققا فى أعمال البشر ، فقد يستغرق تأليف كتاب من عمر كاتبه سنة أو سنتين ، فنجده يعدِّل فى نهاية المدة ما كان قد أثبته فى أولها ، وهو أمر مألوف جدا فى ممارسات البشر . أما القرآن ، ذلك الكتاب الكامل الوافر ، فقد ظل طوال السنوات يتكامل بآياته آية آية ، دون أدنى تناقض أو اختلاف ، وذلك آية على أنه بدأ منذ الكلمة الأولى من الوحى يرسل أحكامه وكماله ، بعد أن نظمته قدرة الله الذى « علم القرآن » ، وفى هذا يقول الله وهو يحتكم إلى علم العرب بلسانهم ، وإلى عقلهم وقد نزل القرآن بما فاق قدرة البشر على الكمال :

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » [النساء آية ٨٢] .

مضمون القرآن واقتداره التعبيرى :

أما مضمون القرآن فهو ما لا نستطيع الإحاطة به فى هذه العجالة ، إلا إشارة مجملة إلى تنوع هذا المضمون ما بين الدنيا والآخرة ، فهو فى أمر الدنيا لا يترك صغيرة ولا كبيرة يلزم التشريع لها ، إلا وقد لمسها إجمالا أو تفصيلا ، هداية للناس فى مسيرتهم اليومية ، وهكذا نجد فيه التشريع ، والدعوة إلى التزامه ، وقصص الذين تمسكوا بشرائع الله ، أو الذين أهملوا شريعة الله من

السابقين ، وأهم القضايا التى ركز عليها القرآن قضية (الوحدانية) ، ولا عجب فى ذلك ، فإن دعوة النبى ﷺ لم تكن إلا إلى التوجه لله وحده بالتوحيد الخالص :

«قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » [ سورة الإخلاص ] .

ولذلك يجب أن نقرر هنا أن القرآن لم يتعرض لقضية ( وجود الله ) ، لأنه لم يكن هناك واقع فى حياة العرب من أبناء إسماعيل وحول بيت الله ينفى هذا الوجود ، وكانت دعوة القرآن والإسلام منصبة على نفى الشركاء لله الحق ، الذى تعلم قريش والعرب أنه الله الحق ، ولكنهم تعلقوا فى غفلاتهم بالشركاء زعما بقولهم :

« ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » [ الزمر آية ٣ ] .

بل إننا نستطيع أن نزعم أن الإنسان ، مهما بلغ من الانحراف لايخرج عن تصور قوة مسيطرة على الحياة والوجود ، فالإنسان ( مؤله ) منذ كان ، وإلى آخر الزمان . غاية ما هنالك أن من يدعون أنفسهم (بالملحدين) يختلفون عن أصحاب الأديان فى وصف القوة المسيطرة على الكون ، فيرى أصحاب الإيمان أن هذه السيطرة إلهية ، ويرى أصحاب الإلحاد أنها سيطرة طبيعية ، أو مصادفة ، أو يكون الإله هو المادة أو الإنسان ، أو هو المجتمع إلى آخر هذه التصورات السقيمة التى لم تنف وجود المسيطر ، بل مسخت صورته بالعجز عن إدراكه فى أذهان العاجزين المنحرفين ، ومع ذلك فقد أكدت لزوم وجود القوة المسيطرة فى صورها الباطلة ، والتى لايشير أحدها قط إلى الله الحق كما دعا إليه الرسل ، ونادت به الكتب المنزلة .

ولقد يتحدث القرآن فى سبيل إثبات هذه الوحدانية الخالصة لله عن الكون ،

وما يضم من أجرام وأبعاد وقوانين حاكمة للمادة ، فإذا به يقدم الحقيقة المطلقة فى أوجز عبارة ، وأعظمها كشفاً عن الحقائق والسنن .

وحسبنا أن نسوق فى هذا الصدد إشارة القرآن إلى نظرية امتداد الكون، تلك الفكرة التى اهتدى إليها علماء الفلك ، عندما لاحظوا تغير المسافات المرصودة بيننا وبين بعض الكواكب السديمية دائما . بسرعة تفوق سرعة الضوء ، ومعنى ذلك بالأسلوب العلمى أن مساحة الكون تتغير باستمرار ، إلى زيادة مطردة هائلة دائمة . هذه الحقيقة الكونية الرائعة لم يتح إدراكها للعلماء إلا بعد اكتشاف الأبعاد الكونية بمناظير مقربة ألكترونية ، وبعد أن غزا الإنسان الفضاء ، للتأكد من تقديرات العلماء على الأرض ، وما كان معقولا أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة قبل هذا القرن العشرين .

فأما خالق الإنسان ، فقد أخبر بها من قبل أربعة عشر قرنا فى آية من سورة الذاريات ، هى قوله تعالى :

« والسماء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون » [ الذاريات آية ٤٧ ] .

فتعبير القرآن يفيد أن السماء تم بناؤها ، ولكن توسيع هذه السماء أمر مستمر مطرد ، وهو حديث عن عالم غير مدرك آنذاك بأية حاسة أو قدرة عقلية ولكنه إخبار الخالق الذى علم القرآن ، بالحقيقة التى اتجه العلم إلى إدراكها بعد أربعة عشر قرنا .

وربما اتصل بهذا الموضوع عن السماء والكون حديث القرآن عن الآخرة، وعن موجوداتها الكونية ، كالجنة والنار، وهى أكوان لا يمكن تصورها إلا من خلال صورة العظمة الإلهية المتجلية فى خلق الكون المنظور ، فى هذا الخلق

المغيب ، وهو استدلال لابد أن يعقبه تسليم وإيمان بقدرة الخالق ، وبحقيقة عالم الغيب ، ذلك الموجود الثابت فى آيات القرآن :

« وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ، ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن الله » [ الزخرف آيات ٨٥ — ٨٧ ] .

إن حقيقة هذا الكون كما عبر عنها القرآن وكما فسرها العلماء ، تجلّ عن التصور ، وتدعو إلى الإيمان بالقرآن بلا تردد ولا مراء .

وقد نتساءل هنا :

هل القرآن الكريم هو الذى يحفظ اللغة العربية ؟ أم أن اللغة العربية هى التى تحفظ القرآن ؟ فإذا شئنا إجابة علمية عن هذا السؤال فلن تكون الإجابة — مع لزومها — أصدق تعبيراً من قول الله فى القرآن :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [ الحجر آية ٩ ] .

ومعنى هذا أن حفظ القرآن ليس مهمة بشر ، ولا هو يتحقق بوسيلة من وسائل البشر ، بل هى مهمة الله وحده . « وإنا له لحافظون »

لقد قلنا : إن إرادة الله فى سننه فى البشر شاءت أن تجعل العربية لغة الوحى المنزل ، فهل أفادت العربية من هذا التنزيل ، أو من هذا الاستخدام الإلهى فى التعبير عن رسالة الوحى ؟ ...

إن هذا السؤال يبدو ساذجا ، ولكنه مفتاح إلى حقائق كثيرة من الضرورى الإلمام بها .

ولسوف نتصور الآن الوضع فى الجزيرة العربية قبل نزول القرآن ، وهذه الجزيرة كانت مهداً للناطقين بهذه اللغة ، وكانت محاطة من كل جانب بوجود لغوى هائل من الفرس فى فارس والعراق ، ومن الروم فى الشام ، ومن الأنباط العرب ، والانباط العرب فى مصر . وهذه الشعوب كانت حتى ذلك الحين مساوقة للحضارة الإنسانية على قدر ما بلغت من مستوى .

والعرب فى ذلك الحين كان وجودهم قبائلياً ، يتمثل فى تجمعات ندوية حول الماء والمراعى ، باستثناء مركزين فى مكة ويثرب ، يتميزان بوجود بعض النشاط التجارى . فيما عبر عنه القرآن برحلة الشتاء والصيف . وكان العرب أمة مفتنّة فى بيانها ، ولاسيما ما كانت تنشده من أشعار ، وكان أكثر اعتمادها فى الحفاظ على نتاج العقول هو استخدام الحافظة أو الذاكرة فى رواية القصص والأمثال والأشعار . وكان الشعر بنظمه وإيقاعه أكثر تداولا بين القبائل ، فيتناشده الكبار والصغار ، وما استجادوه منه بقى بالحفظ والرواية ، والتسجيل الخطى حتى وصل إلينا .

وفى هذه الظروف لا يتصور أحد أن يتخلق مجتمع حضارى فى الجزيرة العربية ، ووضع كهذا لا يتصور أن يؤول إلا إلى الانقراض الاجتماعى واللغوى ، وهو فى أفضل توقعاته قد ينتهى إلى حركة هجرة من نوع الهجرات التى سبقت فى تاريخ الجزيرة العربية على طول التاريخ .

وهذا التاريخ يحدثنا أن جزيرة العرب شهدت هجرات دورية كانت تحدث كل ألف عام تقريبا من داخل الجزيرة إلى خارجها . وقد كانت أولى الهجرات التى سجلها التاريخ إلى العراق حوالى عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد حيث

خرجت قبيلة كلدة (شيخ عربى مؤسس لدولة الكلدان[١]) وقد كانت طليعة النبط والآراميين ، الذين نزحوا من شمال بلاد العرب فنزلت العراق مخيمة على ضفاف الفرات وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الكلدية ، من فصيلة اللغات السامية التى هى أسرة العربية فى الواقع . .

وجاءت الموجة الثانية عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد ، حيث عادت بلاد العرب فغصت بأبنائها بعد ألف سنة ، فكانت الهجرة الآمورية الكنعانية، إلى شمال جزيرة العرب ، حيث نزلت شعبة منهم ساحل البحر الأبيض المتوسط على حين انتشرت شعبة أخرى فى سوريا، وكانوا يتكلمون الكنعانية، إحدى اللغات السامية المنتشرة فى الجماعات التى نزلت الساحل الشرقى للبحر الأبيض ، وكانت الشعبة الأخرى التى دخلت سوريا تتكلم بالآرامية .

وحدثت الموجة الثالثة عام ١٦٠٠ قبل الميلاد، فى اتجاه العراق، وكان من نتائجها استيلاء العرب على زمام الحكم فى مملكة كلدة كلها وتأسيسهم الدولة الكلدية الخامسة التى من ملوكها ( حمورابى ) المشهور .

وفى عام ٦٠٠ قبل الميلاد كانت الموجة الرابعة ، وهى هجرة موجة من أبناء إسماعيل فى اتجاه الشام واليمن .

ثم كانت موجتان عربيتان زمن ميلاد عيسى عليه السلام نتيجة الحروب القبلية الطاحنة، ففصيلة تنزل العراق ، وأخرى تنزل فلسطين ، وثالثة إلى الشام ورابعة تتجه إلى مصر .

والملاحظ على هذه الموجات كلها أنها كانت تحدث نتيجة ازدحام قلب الجزيرة بالسكان ، مع عجز مواردها عند الجفاف عن ضمان استمرار الحياة لمن

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذه الهجرة فى صدر هذه الدراسة .

فيها من البشر ، فإذا بظاهرة الهجرة تحدث بصورة دورية كل ألف عام تقريباً .

والملاحظة الثانية : أن هذه الموجات كانت تأخذ شكل زحوف بشرية فى اتجاه الخصب على أحد الأنهار الموجودة بالمنطقة ، وهى دجلة والفرات فى العراق ، وبردى فى الشام ، والنيل فى مصر .

والملاحظة الثالثة : أنها لم تقترن أو تستتبع قيام دولة ، أو نشأة حضارة قوية فى مراكز الهجرة فى العراق أو فى الشام ، بل إنها اقتصرت على إعادة التوزيع السكانى على سطح الجزيرة العربية وما حولها مع خلق تجمعات قبلية عربية يمكن أن تؤثر فى الأحداث المقبلة .

غير أن هناك ملاحظة حول الدورية التى كانت تحدث فيها الهجرات ، فقد كانت على مدى ثلاثين قرنا تحدث كل ألف عام ، ولكنها بعد ذلك كانت تحدث كل ستة قرون تقريبا ( عام ٦٠٠ قبل الميلاد ) ثم ( إبان ميلاد المسيح ) ، ثم ( بعد المسيح بسبعة قرون ) عندما بعث النبى ﷺ ، ثلاث هجرات فى حوالى ١٣٠٠ عام ، وخرج العرب المسلمون آخرها فى موجة دينية لتحرير الوطن العربى الكبير من الشرك ، ورفع لواء الوحدانية الخالصة .

وهذه الهجرات المتتالية توحى بأن توقعات الحياة فى الجزيرة العربية ما كانت لتكون أكثر من تحرك الجموع المتكاثفة فى اتجاه الجنوب ، أو فى اتجاه الشمال ، التماسا للرخاء أو سعيا إلى الأمان .

أما أكثر من ذلك فلا قرينة تعين على تصوره ، لأن المادة التى تصنع منها الحضارة لم تكن متوفرة فى داخل الجزيرة العربية ، ماعدا الإنسان .

وهذا الإنسان هو الذى استهدفته فى موعده دعوة الإسلام ، تحقيقاً لدعاء

إبراهيم وإسماعيل عند بيت الله ، ليؤلف الله بعد عدوات الجاهلية بين قلوب القبائل العربية ، ليخرجوا بهذا الدين الحق على الناس ، حاملين الحرية والإيمان والأمن إلى جميع أرض العرب تحت راية القرآن مبشرين ، بالمجتمع الإنسانى الجديد ، الذى لا فضل فيه لأحد إلا بالتقوى .

ولقد كان أفضل ما يميز هذا الإنسان العربى فى جزيرته أنه كان إنسانا فطريا لم تستهلكه أساطير موضوعة ، ولا حضارات قاهرة ، لقد كان إنسانا يملك إرادته ، وبقية دين إبراهيم ، مع فطرته السليمة ، ولغته الكاملة ، وبيانه النافذ ، وقابلياته التى أعده الله بها ليزكيه بالكتاب ، وليكمل له الدين ، وليتم عليه النعمة بالإسلام .

كانت لغته هى شغله الشاغل فهو يعكف عليها فى مواسم الحج متفننا فى تصريف القول بها وانتقاء ألفاظها ، وصقل أشعارها وحفظ نصوصها ، فلقد كان يدرك أن عبقريته وتفوقه ومستقبله ونقاءه فى لغته العربية التى انتسب إليها فصار بها عربيا ، أى : مبينا ، وصار من حوله رغم حضاراتهم «عجما» غير مبينين !

ولقد ضمنت هذه الظروف للغة العربية نقاء من الشوائب ، وبعداً عن التأثير اللغوى الأجنبى ، بحيث لم يكن يتسلل إليها من اللغات الخارجة عنها إلا الألفاظ المعبرة عن منتجات الحضارة التى تنتقل إليها بأسمائها ، كالإستبرق والسندس والزنجبيل ، وغيرها من الألفاظ الأعجمية التى تنتمى إلى غير العربية .

وهكذا نزل القرآن واللغة العربية شغل العربى الشاغل ، فى صحوه ، وحلمه فى منامه ، وقد بلغ افتتانه بها ، وافتنانه فى بيانها مستوى من النضج لم تبلغه أية لهجة من اللهجات السامية التى هى من أخوات العربية . كالعبرية والآرامية والسريانية والكنعانية والكلدانية الخ ، لأن عكوف العربى على

إبداع بيانه بالعربية بلغ به درجة تقرب من التقديس للغة ، وأتاح لها بذلك فرصة نضج فنى متقدم يتميز بالأصالة وبالنقاء . فاستحقت أن تكون وعاء لوحى الله وكلامه الحكيم .

ومن ثم كانت الآية القرآنية : أن هذه اللغة التى عكف عليها العرب ، لتجويدها ، وامتلاك ناصية المعانى الإنسانية والواقعية بها ، قد تنزلت من عند الله بكلامه لتعبر عن أقصى وأحب ما يبلغه إدراكهم ، وما تتدبره عقولهم ، فى مستوى لا تبلغه قدرتهم على المحاكاة ومع ذلك فإن الألفاظ واحدة ، والأدوات واحدة ، وأشكال التصريف واحدة ، أى أن المادة اللغوية هى هى ، ومعانى الألفاظ هى هى تقريبا ، ولكن تشكيل الألفاظ والمعانى والتراكيب والإيقاع ، فى الوحى الإلهى ـ هو الآية العظمى ، فوق كل منال .

فكيف أطاقت العربية أن تتسع بحروفها وكلماتها لهذا التنزيل الإلهى بالقرآن العظيم ، دون أن تضيق عنه ، أو تعيا بحمله ، فكأنما هو بيان يتفجر من قلبها ؟ تلك صنعة الخالق :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » ، [ الرحمن آيات ١ ـ ٤ ] .

ولقد كان نزول القرآن بالعربية حدثا فريدا فى تاريخ الدين والإنسان ، ذلك لأن ضرورة استمراره آية باقية لدعوة الاسلام ـ حققت من الناحية التاريخية استمرار العلاقة بينه وبين بيان العربية ، بحيث يظل هذا البيان قرآنياً ، يفسر القرآن ، ويحيا بالقرآن .

وكان من الممكن لو لم ينزل القرآن أن يتغير بيان العربية بمرور الزمن ، وتتابع الأجيال ، ثم تبدأ اللهجات العربية ـ التى كانت متعددة بتعدد القبائل ـ تستقل ، لتصبح من جيل إلى جيل لغات مستقلة ، لا علاقة بينها ، إلا ما يكون

من علاقة بين لغات الفصيلة الواحدة ، كما حدث للهجات الساميين التي أصبحت لغات مستقلة ، أى : أن نزول القرآن قد كفل مجموعة من النتائج فى وجود اللغة العربية :

أولها : أن العرب جميعاً تشبثوا باللغة الفصحى ، لأنها لغة الوحى والعقيدة .

وثانيها : أن اللهجات العامية اقتصرت على حيز ضيق جداً من ممارسة الحديث الخاص بين الأفراد ، مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية .

ثالثها : أن مرور الزمن ، وتتابع الأجيال لم يكن له من تأثير على بقاء اللغة العربية الفصحى إلا مزيدا من تفاعلها مع القرآن ، بحيث بقيت لغة الأمة العربية الخالدة بخلود القرآن .

رابعها : أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين فى أنحاء العالم ، فهم يقرأون القرآن بالعربية ، ويتعبدون بحروفه ، ويتخذون طريقة كتابته وسيلة لتسجيل لغاتهم ، وهذا فى حد ذاته نصر حققه القرآن للعربية ، على مستوى عالمى .

خامسها : وهذا هو الأهم ـ كانت آية القرآن اللغوية إعلاناً عن صلاحية اللغة العربية علمياً وإنسانياً لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة ، والتعبير عنها مهما يكن مستواها ، لأن اللغة التى تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ ، لابد أن تكون أقدر على التعبير عن أى مستوى من مستويات تقديم الإنسان عبر كل العصور .

ولعل من خير ما يساق فى هذا الصدد عن علاقة القرآن بالعربية ما جاء فى كتاب ( تحت راية القرآن ) للمغفور له مصطفى صادق الرافعى ، قال :

« والقرآن الكريم ليس كتابا يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب ، إذ لو كان هذا أكبر أمره لتحللت عقده وإن كانت وثيقة ، ولأتى عليه الزمان ، أو بالحريِّ ، لنُفِّس من أمره شيء كثير عن الأمم ولاستبان فيه مساغ للتحريف والتبديل من غال أو مبطل، ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذرا للعوام والمستعجمين فى إحالته إلى أوضاعهم ، إذا ثابت لهم قدرة على ذلك ، ولو فعلوه لما كان بدعا من الرأى ،ولا مستنكرا فى قياس أصحابنا ، لأنهم لم يعدوا منفعة طلبوها من سبيلها ، وخطة انتهجوها بدليلها » .

« وليس يقول هذا إلا ظنين قد انطوى صدره على غل ، واجتمع قلبه على دخلة مكروهة ، وإلا جاهل من طراز أولئك ، لا يستطيل نظره بتجربة ، ولا ينفذ بعلم ، وإنما هو آخذ بذنب الرأى لا يوجهه،ولكن يتوجه معه ، ولا يُقْبِلُ به ، ولكن يدبر به الرأى » .

« إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما ، حتى يتأذن الله بانقراض الخلق ، وطى هذا البسيط . ولولا هذه العربية التى حفظها القرآن على الناس ، وردهم إليها ، وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامى ، ولتراخت به الأيام إلى ماشاء الله ، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ، ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية ، ثم لتلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين ، ونضب ما بينهم ، فلم يبق إلا أن تستلحقهم الشعوب ، وتستلحمهم الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية ، لا السياسية ، فلا تتبين من آثارهم فى أنفسهم بعد ذلك إلا كما يثبت من طرائق الماء ، إذا انساب الجدول فى المحيط »[1] .

---

(١) تحت راية القرآن /٤٧

ولعل معنى هذا الحديث من الرافعى يؤدى بنا إلى تصور تأثير القرآن فى هذه الأمة العربية، حين ألف الله به بين قلوب أبنائها، وهو يذهب عنها عيبة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، ثم وهو يمحو ثاراتها القبلية ويخلصها من الشرك، ليحييها بالإيمان، وليزكيها ويطهرها بالكتاب والحكمة، وقد اجتباها الله لذلك، وأعدها لسانا وخلقا وقابلية، كما جاء فى قوله تعالى:

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا، ليكون الرسول شهيدا عليكم، وتكونوا شهداء على الناس » [ الحج آية ٧٨ ].

وخلاصة القول أن القرآن الكريم هو الذى يحفظ اللغة العربية، وليست اللغة العربية هى التى تحفظ القرآن.

كما أنه ليس ممكنا تحقيق نهضة جديدة فى هذا الوطن العربى إلا على أساس العودة إلى لغة القرآن لفظا ومعنى . . وتلاوة وتدبيرا . . ونصا وتطبيقا.

# أزمة العربية المعاصرة

لعلنا فى هذه الدراسة نمس قضية أساسية فى حياة العرب المعاصرة ، فقد واجهوا حالة من الركود اللغوى ، تمثلت فى انعزال اللغة العربية عن مجالات الحياة الحضارية ، ذلك أن العلوم الرياضية والطبيعية ، والكيمائية ، والطبية وغيرها تمارس دراستها وتدريسها باللغة الإنجليزية ، وعبثا يحاول المصلحون حتى الآن أن يغيروا من هذا الوضع المزرى ، وأن يبعثوا اللغة العربية على ألسنة أهلها من دارسى العلم الحديث ، وكأنما تقوم على استمرار هذا الوضع العجيب قوى خفية تحرص على إفشال كل محاولة لإحلال اللغة العربية محل اللغة الأوربية ، فى التدريس بالجامعات والمعاهد العليا .

من هذا الواقع العجيب يجب أن نبدأ مناقشة مشكلة اللغة العربية ، التى تبدو فى وضع متدهور حضاريا ، رغم أن القرآن الكريم موجود بين أيدى المسلمين ، ورغم أن القرآن قد سجل فى تاريخ الإنسانية حدثا فريدا هو حفظ اللغة ، وتثبيت صورتها اللفظية ، والتركيبية على مدى القرون ، على حين لا يمكن أن ينهض بهذه المهمة فى تاريخ أية لغة إنسانية كتاب معين ، مهما يكن شأنه .

ولنأخذ على هذه الفكرة مثالا واحداً من بين أمثلة كثيرة فى التاريخ ، فهذه اللغة الأغريقية التى كان يتكلمها القدماء قبل ميلاد المسيح ، قد كتب بها أهم نتاج الفكر الإغريقى ، على أيدى فلاسفة الإغريق ، من أمثال

سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو وغيرهم ، ولو أننا اعتبرنا أعمال هؤلاء الفلاسفة بمثابة كتاب متكامل مؤلف باللغة الإغريقية القديمة ، فإن صفحات هذا الكتاب سوف تبلغ أضعاف صفحات القرآن الكريم ، ومع ذلك فإن هذه اللغة الإغريقية قدتغيرت تماماً ، وأصبحت هى واللاتينية فى عداد اللغات الميتة ، أما العربية فقد بقيت بما فى القرآن من « سر إلهى » هو أعظم تأثيراً من ثقافة البشر جميعاً ، بل إن من الممكن أن نزعم هنا أن القرآن هو الذى منح العربية ضبطها ، ونحوها ، وقواعدها ، وكفل لها الاستمرار والنماء ، فالعربية تدين بصورتها الكاملة للقرآن لا ريب .

وبرغم هذا نجد أن العربية قد انحدرت فى العصر الحديث حتى أصبحت فى عداد اللغات المتخلفة ، وحتى أصبح كل أمل العرب أن تعترف المنظمات والهيئات الدولية بلغتهم على أنها من اللغات الدولية ، وإن كان هذا الاعتراف لايضيف جديداً إلى الوضع المتخلف الذى تعانيه اللغة العربية بين أهلها ، وداخل أوطانها ، وهو الوضع الذى سوف يستمر طالما بقيت العربية مبعدة عن مجالات العلم والتكنولوجيا ، وطالما اتخذ العلماء العرب لغة غيرها كوسيلة لتدريس العلوم بالجامعات العربية .

## اللغة وأعداء الاسلام :

ومن الواجب أن نتساءل عن السبب الذى قاد اللغة العربية إلى هذا الوضع المتخلف ؟ .

والجواب بدهى ، يوحى به سياق هذا الحديث ، فإذا كان القرآن هو

واهب الحياة لهذه اللغة على نحو ماتقرر ، فإن من الطبيعى أن تموت إذا ماحيل بينها وبينه ، كما يموت الزرع إذا ماحرم الماء ، وكما يموت الكائن الحى إذا حبس عنه الهواء !

ولقد عرف الاستعمار هذا السر فعمل كل مافى وسعه لأحداث الفصل بين الحياة العربية وبين ( الإسلام ) ، إذ كان قد جرب من قبل تجارب مريرة فى محاربة ( القرآن ) بصورة مباشرة ، فلم تسفر جهود المستشرقين المجندين لذلك ، فى الطعن على القرآن وتشويه صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إلا عن خذلان وفشل .

والواقع أن المساس بالقرآن أمام أى مسلم حتى لو كان ضعيف العقيدة واهى الإيمان ، يثير فى نفسه حمية واندفاعاً للذود عنه ، ومحاربة أعدائه .

فأما محاربة الإسلام تحت ستار المدنية أو التقدم أو التطور ، فتلك كلها دعاوى تجوز على الكثيرين ، ممن يحرصون على تحقيق هذه الأهداف ، فضلا عمن يحاولون دائماً التوفيق بين مبادىء الاســـلام وقضايا العصر الحديث .

ولعل فى مسلك الماركسية داخل الوطن العربى ، بل وفى البلدان الإسلامية بعامة ـ مايبرهن على صواب هذا التصور ، فلقد أدرك المخططون لمسيرة الماركسية فى الشرق أن أكبر عقبة تواجههم تتمثل فى هذا القرآن ، دستور الحركة الاسلامية ، ولما كان موقف الماركسية أساساً هو الإلحاد الصريح برفض مبدأ الألوهية ـ فقد كان ذلك الموقف حجر عثرة فى طريق تغلغلها فى قلوب الشباب وعقولهم ، ومن ثم كانت توجيهات الحزب الشيوعى

فى أى مكان لعملائه ألا يثيروا أى نقاش حول العقيدة ، وألا يصطدموا بمبدأ الايمان بالله ، فيتركوا هذا الجانب بعيداً معزولا عن المناقشة ، ثم إن عليهم أن يركزوا على قضايا المجتمع ، ومشكلات الاقتصاد التى يتقبل المسلم الجدل حولها ، وبذلك يقيمون جسورا للتفاهم وتبادل الأفكار هى فى تقديرهم خطوة أولى نحو تقويض بناء العقيدة الإسلامية فى كيان الفرد المسلم متى استمر الحوار وتعمق التأثير .

ولذلك لا ندهش إذا وجدنا أن كثيراً من المشتغلين بقضايا النقد والمسرح ، والرقص والغناء من المنحلين عقائديا ، أو المتعاطفين مع الماركسية ، لأن المخطط الماركسى يتجه دائماً إلى استخدام منهج ( الإحلال ) فى صراعه مع الأفكار الدينية ، وأعنى بذلك : أن تفريغ الفرد من معتقده يستلزم ملء هذا الفراغ ببعض الأشياء التى يقع عليها دائما اختيار الملاحدة ، كالرقص ، والموسيقى ، والمسرح ، وما إلى ذلك من الاهتمامات التى يرون أنها تشغل ساعات الحوار فى المجتمعات المدنية . فإحلال هذه الاهتمامات محل الأفكار الدينية هو منهج متبع دائما فى الصراع الفكرى ، وخير وسيلة إلى ذلك هى السيطرة على وسائل الإعلام المختلفة .

وكذلك لا ندهش إذا وجدنا أن أكثر الداعين إلى استخدام اللغة العامية فى الرواية ، وفى الأدب هم أيضاً من أصحاب الولاء للمذاهب الأوربية بأنواعها ، لأن النجاح فى هذه الدعوة يقوِّض صرح العلاقة بين المسلم وبين القرآن ، حين يستعجم لسانه ، وتصبح الفصحى القرآنية لغة أخرى أجنبية عنه ، وبمرور الزمن يختفى القرآن من حياة المجتمع الإسلامى ،

ويتم لأعداء القرآن ما يريدون — وهيهات ، فالله متم نوره ، ولو كره الكافرون .

وإذا كنا قد استخدمنا هذا المثال من حياتنا المعاصرة ، فى صراعها مع أعداء الإسلام ، والقرآن ، فإن بداية الصراع كانت منذ عهد بعيد أسبق من الماركسية ، وحلفائها . بدأت مع فجر الحركة الأوربية نحو الشرق ، للسيطرة على الوطن العربى الإسلامى .

# جذور الدعوة إلى العامية

ولنحاول أن نلقى ضوءاً على تاريخ الدعوة إلى استخدام العامية ، وإحلالها محل العربية الفصحى ، لنعطى صورة للقارىء عن هذه الدعوة الخبيثة، التى لاتستهدف أساساً سوى محاربة القرآن ، دستور الإسلام الخالد .

ونلفت نظر القارىء هنا إلى ثلاثة مصادر أساسية يمكن الرجوع إليها فى هذا الصدد :

أولها : كتاب الدكتورة نفوسة زكريا بعنوان ( تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية ، وآثارها فى مصر ) ، وهو مطبوع عدة طبعات ، أولاها عام ١٩٦٤ ، وهذا عن الجانب التاريخى .

ثانيها : كتاب ( أباطيل وأسمار) الذى كان خلال عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ مجموعة من المقالات كتبها العالم المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر فى مجلة الرسالة ، التى كانت تصدرها وزارة الإرشاد القومى آنذاك ، وقد توخى الكاتب الكبير أن يدفع عن الإسلام والعربية غائلة بعض عملاء المبشرين ، من أمثال سلامه موسى ولويس عوض ومدرستهما . ويستطيع القارىء لهذا الكتاب ، الذى طبع أيضاً عدة طبعات أن يدرك البعد السياسى ، والعقائدى لهذا الصراع بين دعاة العامية ودعاة الفصحى .

ثالثها : كتاب ( الزحف على لغة القرآن ) لأحمد عبد الغفور عطار ، وقد صدر فى بيروت عام ١٩٦٥ ، وقد أحسن مؤلفه أيضاً عرض القضية ، واستقصى جوانبها فى مصر ، وفى لبنان ، وفى سائر البلدان العربية ، كما تتبع

سعى بعض أعداء الفصحى ، فى سِيَرهم ، وفى نشاطاتهم .

ولهذه القضية بداية يجب أن نطالع سطورها الأولى ، عندما انحسر المد الصليبى عن أرض الإسلام فى المشرق العربى ، واقتنع عتاة الصليبيين بأنه لا أمل فى قهر المسلمين ، لقـد ظل هؤلاء الحاقدون يحملون بين جنوبهم ذكريات الحقد ، ونداءات الثأر ممن سحقوا جيوشهم ، وأذلوا ملوكهم ، ومرغوا تيجان أوربا فى وحل الهزيمة بعد رد العدوان .

ولعل تلك الكلمة المشهورة المأثورة عن الجنرال اللنبى قائدقوات الغزو الإنجليزى لفلسطين فى أواخر الحرب العالمية الأولى ، تكشف عن مكنون هذا الحقد المتنقل من أصلاب الرجال ، إلى أرحام النساء ، فى شعوب أوربا على اختلافها ، قال اللنبى عندما دخل القدس عام ١٩١٨ وقد وقف على أطلالها :

« الآن انتهت الحروب الصليبية »

لقد قال ذلك بعدسبعة قرون من انتهاء آخر معاركها عام ١٢٩١ ميلادية أى : أن الحرب ظلت من الناحية التاريخية قائمة إلى أن أدرك الجنرال ثأره بدخول القدس ، وعودة الاحتلال الأوربى لها ، وهو الاحتلال الذى أخذ شكله الاستيطانى فيما بعد على يد الانجليز حين مكنوا العصابات الصهيونية من أرض فلسطين ، وواصلوا بذلك معركة الاستعمار الصليبى ، فى صورة تآمر مستمر بين الصليبيين واليهود فى كل أنحاء العالم ، ضد العرب والإسلام .

وكذلك لا ندهش حين نجد جنرالا آخر صهيونياً هو موسى ديان ، يقف عشية حرب حزيران ١٩٦٧ ، ليعلن أنه بهذا النصر الرخيص على الجيوش

العربية قد ثأر لقتلى اليهود فى يثرب وخيبر ، ودخلت الجيوش الصهيونية القدس مرة أخرى لتؤكد استمرار الثأر بينها وبين العرب والمسلمين ! !

والمهم أن نلاحظ الطابع الدينى الذى تحمله الغزوة الصهيونية لفلسطين ، إلى جانب الشعار الدينى الذى حمله الصليبيون ، ليمكننا أن نفسر تلك الصيحة التى أعلنها موتور آخر هو : وليم جيفور بلجراف حين قال :

« عندما يختفى القرآن ، ومدينة مكة من بلاد العرب فمن الممكن أن نرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » !!

نعم ، فذلكم هو الهدف النهائى لكل الغزوات التى توافرت على أرض الإسلام : أن يختفى القرآن ، وأن تزول مكة من دنيا العرب والمسلمين ، ولعل من الملاحظات الواضحة لكل من يتابع قضية الصراع الفكرى بين المسلمين وخصومهم من المستشرقين ، أن نجد هؤلاء الذين يدعون النزاهة فى أحكامهم يعكفون على التنديد بفكرة « الدين والدولة » فى الإسلام ، ولا نجد أحداً منهم ينتقد هذه الفكرة فى اليهودية ، لأن قيام دولة يهودية على أساس الدين هو مما سعى ويسعى إليه عتاة الصليبيين فى عصرنا ، من حيث إنه يمثل شوكة فى جنب الإسلام ، أو فى قلبه ، وهم يرون الإسلام عدواً تقليدياً لوجودهم الإرهابى .

ومعنى ذلك أن الذين تصـــادوا فى التاريخ وفى الواقع ، وهم اليهود والصليبيون ، قد اتحدوا الآن بكل معسكراتهم الإيديولوجية : رأسمالية ، وشيوعية ، وصهيونية ، لحرب الإسلام ، وتدمير المسلمين .

ويجب ألا ننسى أن إسرائيل قد حاربتنا ، وتحاربنا دائماً بجنود من

الدول الشيوعية ، وأسلحة من الدول الرأسمالية ، فكأنها تمثل ذلك الحلف الشيطانى لتحطيم وجود المسلمين . ولكل معسكر فى هذا الحلف أهداف يرجو تحقيقها من خلال إسرائيل .

فالصليبيون يريدون تحطيم الإسلام باعتباره دعوة التوحيد التى تلغى دعوة الشرك فى معتقداتهم ، وتنهى دولة الخرافة من وجود الدين !

والشيوعيون يريدون تحطيم الإسلام لنشر الإلحاد ، وتخريب الدين ، فهم يعتبرونه - بقياس غير علمى - أفيون الشعوب ، ووسيلة الأغنياء لاستغلال الكادحين !

والصهيونيون يريدون تحطيم الإسلام ليستمر لهم وجودهم فى فلسطين ، وليتمكنوا من بسط سلطانهم على الأرض ، من الفرات إلى النيل !

لقد التقوا جميعا على هدف واحد أساسى هو تحطيم « الإسلام » بأى ثمن ، وهكذا اتحد الأعداء .

ولكن السؤال الذى يرد فى هذا المجال هو : كيف يمكن تحطيم الإسلام ؟ وهل يمكن للجيوش الجرارة أن تحقق هذا الأمل ؟!

والجواب : قطعاً ليس هذا من مهمة الجيوش الجرارة ، بل إن العكس هو الصحيح . فلقد أثبتت تجارب الحروب أن المسلمين يتحدون فى مواجهة الخطر ، وأن قوة الإسلام تذكو كلما أحس المسلمون بمؤامرات الأعداء القدماء .

وإذن فلا بد من مخطط يقوِّض الإسلام من داخله ، تمهيداً لضرب المسلمين من الخارج .

نعم ، لابد من إزالة القرآن ، وإزالة مكة من دنيا العرب والمسلمين ، ليمكن الاستيلاء على مقدراتهم ؟ وتدمير وجودهم الحضارى ، بعبارة وليم جيفور « لنرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة ، التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » !

وواضح أن (الحضارة) الموجودة فى كلمة هذا الصليبى الحاقد هى حضارة « الكنيسة » الأوربية ، التى ترى أن وجودها ذاته مهدد حضاريا طالما بقى القرآن ، وطالما بقيت مكة ، رمز الوحدة للمسلمين .

## الحرب على القرآن :

والقرآن فى حياة المسلمين ليس مجرد كتاب مطبوع ، بل هو تنزيل من رب العالمين ، تحفظه الصدور ، وتنقله الأجيال ، وتطبقه الشعوب ، وتلتزم به الجماهير سلوكا وتعاليم .

وإذن ، فإن أى هجوم على القرآن لابد أن يخطط له بأناة وحكمة ، حتى لا يستثير كوامن الغيرة والحفاظ لدى المسلمين ، وبذلك يؤخذون من حيث لا يشعرون ، كما أن هذا الهجوم يجب أن يواجه جميع احتمالات المواجهة ، فى مجالات اللغة ، والسلوك ، والتشريع ، والعبادات . .

وبذلك يمكن محاصرة الإسلام من كل الجهات .

ولقد أحسن الأستاذ عبد الغفور عطار تصوير هذه الحملات التى خططها أعداء الإسلام ، فقال فيما يتعلق بنص القرآن :

« رأوا أنه لابد من محاصرة القرآن حصاراً شديدا ، وتطويقه بحيث

لايكون له منفذ ولا متنفس ، فأقاموا عليه الرقباء والحراس اليقظين ، وجردوا عليه الحملات التى لا تحصى :

حملة تتناول أسلوب القرآن بالنقد والتقبيح ..

وحملة تتناول القرآن الآية الكبرى فتنكرها ..

وحملة تتناول لغته من ناحية قواعد العربية نفسها ، وتزعم أن فى القرآن غلطات نحوية !!

وحملة تتناول قصصه ، وتزعم أنها أساطير ..!

وحملة تتناول جمعه وتفسيره ..!

وحملة تتناول معانيه ..!

وحملة تتناول ما فيه من تشريع وحدود ونظم ..!

وحملة تتناول القرآن على أنه نسخة من كتب العهد القديم والجديد..!

وحملة تتناول قراءته وتدريسه » ..

ولكل حملة من هذه الحملات أقطابها ، ودعاتها ، ومتخصصوها ، الذين يعتمدون على التشكيك فى كل المسلمات الإسلامية ، وفى كل الحقائق القرآنية ، ولقد خاض فى هذه الحملات أدعياء ثقافة ومحفيون ، حتى ظهر من يدعو إلى عدم ضرورة حفظ القرآن أو تحفيظه للتلاميذ ، لأن ذلك لا يتفق مع النظريات التربوية التى قال بها علماء صليبيون ، أو ملاحدة ، أو صهيونيون .

وحسبنا أن نذكر هنا ذلك الدعى الذى ظهر فى الجيل الماضى باسم

سلامة موسى ، وقد كان غاية ما نذر نفسه له ، هو الحرب ضد الإسلام ، انتصاراً لصليبية مقيتة يبرأ منها السيد المسيح ، ويبرأ منها المسيحيون الشرفاء، لقد كان سلامة موسى يرى « أن تدريس الدين فى المدارس سوف يحدث خلافا وشجارا بين المسلمين والأقباط » ! ولقد كذّبت الوقائع بعد ذلك ظنه، فلم يكن لتدريس الدين أثر فى المدارس إلا ربط أفراد المجتمع بدينهم وفضائله ، مهما اختلف الدين ، تأكيداً للوحدة الوطنية القوية .

ولقد كان لهذه الحملات الكثيرة هدف آخر ، رمى إلى تحقيقه كهنة هذه الحرب الفكرية ، وهو إلهاء المسلمين فى مشكلاتهم ، وشغلهم بأمور داخلياتهم ، وبعثرة جهودهم حتى لا تتكتل دفاعا ضد العدو المتربص . ولقد تحقق لهم ما أرادوا ، وانصرف علماء الاسلام عن واجب تبليغ دعوته ، إلى واجب الدفاع عنه فى قضايا جزئية ، يثيرها أدعياء العلم والأدب والثقافة .

وفى هذا الصدد ظهرت معارك حول التشكيك فى صحة الشعر الجاهلى ، وحول التشكيك فى الصدق التاريخى للقصص القرآنى ، والادعاء بأن بعض ما جاء فيه لا يمثل الحقيقة ، وإنما هو رمز إلى أمور يستهدفها الشارع ، كما كثر الدعاة إلى استعمال العامية بدل الفصحى ، وإلى استعمال الكتابة اللاتينية فى تمثيل الأصوات العربية ، وكان لبعضهم حول وطول فى المحافل الأدبية ، يسر لهم سبيل الشهرة ، مع أنهم كانوا يدعون إلى الفساد والانحلال فى المجتمع ، تلبية لدعوة زيفها بعض المستشرقين ، من أعداء العروبة والإسلام، ومن عملاء الصهيونية والاستعمار .

* * *

الدعوة إلى العامية :

فلنبدأ القضية من أقدم سطورها ، لنعرف من أين خرجت جذورها ، وهى كما يقول الأستاذ محمود شاكر قديمة جداً : « فمنذ استيقظ العالم الأوربى لنهضته الحديثة وهو يرى عجبا من حوله : أمم مختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، من قلب روسيا ، إلى الهند ، إلى جزائر الهند ، إلى فارس ، إلى تركيا ، إلى بلاد العرب ، إلى شمال أفريقية ، إلى قلب القارة الأفريقية وسواحلها ، إلى قلب أوربا نفسها — تتلو كتابا واحداً يجمعها ، يقرؤه مَنْ لسانهُ العربية ، ومن لسانه غير العربية ، وتحفظه جمهرة كبيرة منهم عن ظهر قلب ، عرفت لغة العرب أم لم تعرفها . ومن لم يحفظه جميعه حفظ بعضه ، ليقيم به صلاته ، وتداخلت لغته فى اللغات ، وتحولت خطوط الأمم إلى الخط الذى يكتب به هذا الكتاب كالهند ، وجزرها ، وفارس ، وسائر من دان بالإسلام ، فكان عجباً أن يكون فى الأرض كتاب كانت له هذه القوة الخارقة فى تحويل البشر إلى اتجاه واحد ، متسق على اختلاف الأجناس ، والألوان ، والألسنة. فمنذ ذلك العهد ظهر الاستشراق ، لدراسة أحوال هذا العالم الفسيح ، الذى سوف تتصدى له أوربا المسيحية بعد يقظتها ، وعلى حين غفوة رانت على هذا العالم ( الإسلامى ) » .

ولا ريب أن هذا الاستشراق كان طليعة الاستعمار الأوربى للعالم الإسلامى ، وأنه كان طليعة غير مسلحة بالأسلحة التقليدية ، كالهندقية والمدفع ، بل بأسلحة تتفوق عليهما فى أساليب الفتك ، وآثار الدمار ، وأعنى بذلك دقة التخطيط ومهارة الكيد والتآمر ، وقد بدأ الاستشراق بدراسة

أحوال هذا العالم الإسلامى ، باسم الحضارة والمدنية ، وقسم العالم الإسلامى ، إلى عربى ، وغير عربى ، فأما القسم غير العربى فقد كان من السهل تحويل وجهته عن العربية إلى لغاته المحلية ، أو إلى لغات استعمارية جديدة ، بتأثير التفوق الحضارى .

ولا ريب أن ما حدث فى تركيا إبان الحركة الكمالية كان من تسلط هؤلاء الأوربيين على عقلية كمال أتاتورك ، ذلك الذى قطع كل علاقة بين تركيا والعالم الإسلامى ، وكان من آثاره ( تغيير ) الكتابة التركية من الحروف العربية إلى اللاتينية ، أملا فى إلحاق تركيا بأوربا ، ولعل الزائر لتركيا الآن يرى إلى أى حد تحققت آمال هذا المغامر الحاقد على الإسلام والعربية ، فإن تركيا لم تحقق من وراء هذه الحركة أى هدف ، فلا هى لحقت فعلا بالبلدان الأوربية فى مستواها الحضارى ، ولا هى أبقت على وشائجها بالوطن العربى والعالم الإسلامى ، إن محاولة ( أوربة ) تركيا لم تسفر إلا عن وضع ملفق خليط من أصباغ وألوان أوربية ، على حين بقيت النزعة الإسلامية تتلمس التعبير عن نشاطها . ولعل ما قرأناه أخيراً فى الصحافة بمناسبة انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية فى أنقره يكشف ، رغم كل ما صنعته علمانية أتاتورك ، عن تمسك تركيا بتراثها الإسلامى .

ولقد كانت مهمة ( الاستشراق ) فى أكثر أحواله أن يرسم للدول الأوربية كيفية التهام أقطار العالم الإسلامى ، وازدرادها قطعة قطعة ، عن طريق دراسة أحوال شعوبها ، ولغاتها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، ومواطن القوة والضعف فى بنائها ، وكيفية التغلب على عناصر القوة ، وكيفية استغلال عناصر الضعف فى تقويض وجودها . وهكذا جاء الاستشراق إلى الوطن العربى .

ومن الملاحظات الجديرة بالتأمل فيما يتعلق بقضيتنا هذه ـ أن جميع المستشرقين وعدداً ممن تابعهم من العرب ، وبخاصة فى لبنان ، على ما دعوا إليه من نبذ الفصحى ، واتخاذ العامية لغة ثقافة ـ هم من المسيحيين ، وهم أيضاً من غير المتخصصين فى الدراسات اللغوية ، وإذا وجد من بينهم من يحمل اسم المسلم ، فهو فى الواقع منحل خارج على الإسلام ، بل هو أسوأ من أن يكون مسيحيا ، ولربما وجد من بين المسيحيين العقلاء من دافع عن الفصحى وانتصر للغة القرآن .

وقد أدى عدم معرفة دعاة العامية بالدرس اللغوى ـ إلى أن وقعوا فى أخطاء ساذجة ، تدل على الجهل ، المتلفع بالحقد والضغينة والخداع .

ولنستمع إلى واحد من أقدم الدعاة إلى استخدام العامية ، ونبذ الفصحى ، وهو المستشرق الألمانى ( ولهلم سبيتا ) ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ ، وقد كان موظفا بدار الكتب المصرية ، وقد خالط سبيتا جماهير الشعب المصرى ، ودرس ما يستهدفه أى مستشرق عنها ، فى حدود المخطط المعروف ، ثم خرج على الناس بكتاب أطلق عليه ( قواعد اللغة العامية فى مصر ) ، وقد جاء فى مقدمته فيما نقلته الدكتورة نفوسه زكريا قوله : « وأخيراً ، سأجازف بالتصريح عن الأمل الذى راودنى على الدوام طول مدة جمع مادة هذا الكتاب ، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ، وليس أمراً بالنسبة لها وإلى شعبها ، يكاد يكون مسألة حياة أو موت ، فكل من عاش فترة طويلة فى بلاد تتكلم العربية يرى إلى أى حد كبير تتأثر كل نواحى النشاط فيها بسبب الاختلاف بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، ففى مثل تلك الظروف لا يمكن مطلقا التفكير فى ثقافة

شعبية ، إذ كيف يمكن فى فترة التعليم الابتدائى القصير أن يحصل المرء ، حتى على نصف معرفته بلغة صعبة جداً ، كاللغة العربية الفصحى ؟!

ثم يقول « وطريقة الكتابة العقيمة بحروف الهجاء المعقدة ، يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم فى كل هذا ، ومع ذلك يكون الأمر سهلا لو أتيح للطالب أن يكتب بلغة ، إن لم تكن هى لغة الحديث الشائعة ، فهى على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة ، بدلا من أن يجبر على الكتابة بلغة هى من الغرابة بالنسبة إلى الجيل الحالى من المصريين ، مثل غرابة اللاتينية بالنسبة إلى الإيطاليين ، وبالتزام الكتابة العربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقى ويتطور » !!

ولعل من الدوافع التى حدت بولهلم سبيتا إلى أن يخرج كتابه هذا — أن مصر كانت تعيش فترة يقظة تمثلت فى إنشاء مدرسة دار العلوم ، عام ١٨٧٢ ، وظهور بعض النوابغ فى العربية وآدابها ممن اشتغلوا فى هذه المدرسة كالشيخ حسين المرصفى ، أو ممن اهتموا بإحياء العربية الفصحى ، كالشاعر محمود سامى البارودى ، ويرى الأستاذ شاكر أنه قد ( بدأت العربية من يومئذ تستعيد شبابها وقوتها ، وانطلقت الألسنة من عقال العجز ، بفضل هذين الرجلين ) .

والواقع أن مصر ، التى كانت موضع تركيز للنشاط الاستشراقى التخريبى ، كانت فى ذلك العهد على مفترق الطرق :

فمن الناحية السياسية كانت فيها صحوة أدت إلى الثورة العرابية ، ومن الناحية الأدبية كانت فيها صحوة أدت إلى بعث العربية من سُباتها ، بعد ليل طويل من التخلف والجمود .

ولولا هذا التحرك الجديد ماتحركت ألسنة سبيتا وشيعته ، بمثل هذا الكلام ، لأن الأوضاع الراكدة لاتحرك الحقد ، ولاتدعو إلى اقتراح جديد ، ولكن سبيتا ، وهو يعمل فى إطار مخطط مرسوم له من قبل ، لاحظ أن الأمور توشك على التقدم إلى آفاق جديدة بالإحياء وبالثورة ، فطلع على الناس بهذه الفتنة ، رجاء أن يحرف مسيرتهم ، وإذا لم يستطع ذلك على وجه الكمال فليكن له أن يشوش على حركة الوطنية المصرية ، ليعوق سيرها نحو أهدافها .

ومع ذلك فإن سبيتا كان يتحدث بلغة مكشوفة تطفح بالخداع ، كما أنها حافلة بالجهالة اللغوية أساساً .

فما من شعب على هذه الأرض إلا وهو يتكلم خلاف مايكتب[1] ، إذ أن من الحقائق المقررة أن يكون هناك دائماً مسافة بين لغة الحديث ، ولغة الفكر والكتابة ، تعرف ذلك كل لغات الدنيا ، حية أو نصف حية ، واللغة ، أية لغة ليست هى القدر الذى يتحدث به الناس ، فلغة الحديث لاتمثل أكثر من ٥ ٪ من حجم اللغة المكتوبة ، والمجموعة فى المعـــاجم والقواميس ، فلو أننا ألغينا مايكون من الفصحى فى الألفاظ والتراكيب ، لما بقى لناشىء فيما يسمى بلغة الحديث ، ولكانت أزمة هائلة تؤدى إلى أبشع عملية تخريب حضارى ، كما أراده ، ويريده أعداء مصر والعروبة والإسلام .

والحديث عن صعوبة العربية حديث عن وهم لا حقيقة له ، فكل لغات الدنيا عبارة عن كلمات ، وتراكيب من هذه الكلمات ، ولكل كلمة مدلول أو عدة مدلولات ، وعلاقة الفرد باللغة هى علاقة التلقى عن الجماعة بالحفظ والتدريب .

---

(١) ارجع إلى دراستنا لهذا الموضوع ص ٥٢ وما بعدها

ولا فرق فى ضرورة الحفظ والتدريب بين لغة وأخرى . أو بين متكلم وآخر .

ولكل لغة تقاليدها التى تميزها عن غيرها ، وعلى من يريد معرفتها أن يهضم هذه التقاليد ، كما هضمها سيبتا وأضرابه ، وأكبر دليل على إمكان هذه المعرفة لمن أراد — إتقان كثير من هؤلاء المستشرقين الغربيين للفصحى ، ربما بصورة أفضل من بعض العرب أنفسهم ، يقابل ذلك قدرة كثير من العرب على إتقان اللغات الأجنبية ، بطول المران ، وجودة الحفظ .

فإذا جئنا إلى الكتابة كان أمرها أهون ، لأن كمية الرموز المستخدمة فى تسجيل النطق هى فى الواقع نصف المنطوق ، أو أكثر بقليل ، ومعنى ذلك أن الكتابة العربية كتابة موجزة .

فهل يمكن أن تكون الكتابة اللاتينية أوفى من الكتابة العربية فى تسجيل المنطوق ؟ .

ذلك أمر بعيد ، إذ أن البشرية لم تعرف حتى الآن نظاما كتابيا يسجل واقع النطق كما هو ، لأنه إنما يتدخل فى ذلك دائما عوامل كثيرة ، أهمها التاريخ والتراث . وعدم قابلية نظام الكتابة للتطور طبقاً لتطور النطق المسموع . أى : ان نظام الكتابة فى جميع اللغات هو دائماً نظام متخلف ، ومع ذلك فإن الأجيال تبقى عليه ، حفاظاً على علاقتها بماضيها ، ولو أن كل جيل استباح أن يغير نظام الكتابة تبعاً لمواصفاته النطقية لكان لكل جيل نظامه الكتابى الذى يختلف قطعاً عن سابقه ، قليلا أو كثيراً ، وهو أمر أقرب إلى الفوضى ، منه إلى الاستقرار أو التقدم ! وقد سبق بيان ذلك.

وأما التمثيل للفرق بين العربية الفصحى والعامية بالفرق بين اللاتينية والإيطالية فليس مقبولا من الناحية اللغوية ، لأن لكل لغة ظروفها الخاصة التى تنفرد بها ، واللغة العربية لغة مصطفاة ، نزل بها أخلد كتاب ، عرفته

البشرية ، فاستقرت صورتها اللفظية ، واحتكمت قدرتها البيانية ، وأصبح كل مبين بهذا اللسان منجذباً إلى لمحـــات البيان القرآنى ، كما تنجذب الكواكب والنجوم إلى مراكز جاذبيتها فى المجرة التى تسبح حولها . والقرآن لهذه الأمة المؤمنة إنما هو مركز جاذبيتها الأعظم فى الاتجاه الصادق والهادف إلى الله .

هذه مناقشة لما ساقه ولهلم سبيتا ، ومن وجهة نظر موضوعية محضة ، فإذا وضعنا كلامه هذا فى ضوء خلفياته الدينية الاستشراقية زادت الصورة عجباً وإثارة ، ولنقرأ ماقاله هذا المحترق بحقده فى التعقيب على دعوته :

« لماذا لا يمكن تغيير هذه الحال المؤسفة إلى ماهو أحسن ؟ ... ببساطة لأن هناك خوفاً من التعدى على حرمة الدين إذا تركنا لغة القرآن كلية ، ولكن لغة القرآن لا يكتب بها الآن فى أى قطر ، فأينما وجدت لغة عربية مكتوبة فهى اللغة العربية الوسطى ، أى : لغة الدواوين ، وحتى مايدعى بالوحدة بين الشعوب العربية لا يمكن أن يقلقها تبنى لغة الحديث العامية ، إذ أن لغة الصلاة والعبادات الدينية الأخرى ستظل كما هى فى كل مكان » !

والعجيب أن نجد فى هذا الكلام محاولة للتفريق ، والتمزيق ، إذ بينما يفصل لغة القرآن عما سماه باللغة العربية الوسطى ، نجده يفصل لغة الحديث اليومية عما سماه : لغة الصلاة والعبادات الدينية ـ كأنما يحلم بأن تصبح العربية لغة كهنوت ، حين تتحول المساجد إلى معابد خربة ، وحين يتحول علماء الإسلام إلى قسس متجمدين داخل الأديرة ! !

والأعجب من ذلك أن نجد هذه الدعاوى تتكرر فى أحدث طبعاتها ، فى مجلة ( ديوجين ) التى تصدرها منظمة اليونسكو ، فقد نشر بها فى العدد

الخامس والعشرين ( مايو – يوليو ١٩٧٤ ) مقال لكاتب لاتخفى على فطنة القارىء هويته واسمه : وهو أنطوان مطر ، والمقال بعنوان :

( اللغة العربية والظروف الحاضرة ، وما ينتظر تحقيقه من آمال فى مستقبل عالم المتكلمين بها ) .

وقد وصف الكاتب اللغة العربية الفصحى بأنها لا يمكن أن تستعمل اليوم فى نقل الفكر الحديث لثلاثة أسباب ظاهرة :

١ – قد احتفظت اللغة العربية لمدة قرون بطابع دينى قوى جداً ، وهى عند المسلمين لغة الوحى ، وهى كذلك لغة الوحى عند الأتراك والأندونيسيين والباكستانيين ، وآخرين من الذين لا يستطيعون فهمها ، وهؤلاء لهم لغة قومية علمانية ، فى حين أن العرب ليست لهم لغة من هذا النوع .

٢ – اللغة العربية وسيلة معبرة عن حضارة قديمة قوية التأثير ، ظلت مرتبطة بتراثها القديم كأنها لن تكون أكثر من وسيلة للتعبير عن التاريخ .

٣ – تجاوز التطور الاجتماعى والاقتصادى العالم العربى من ناحية ، كما تجاوزه التطور التقنى من ناحية أخرى ، لأنه ظل منفصلا عن حركة التقدم العلمى المسرعة المعاصرة لأسباب سياسية فى جوهرها .

إن بين سبيتا وأنطوان مطر فاصلا زمنيا يقترب من قرن كامل ، ومع ذلك نجد أن أسس دعواهما واحدة ، تقوم على التعريض بالفصحى ، فهى لغة طقوس دينية ( كاللاتينية والقبطية داخل الكنائس ) ، وهى لغة تاريخية ميتة كاللغة المصرية القديمة ، وهى لغة متخلفة تجاوزها التقدم العلمى والحضارى ، وباختصار : هى أسوأ لغة فى العالم منذ كان ، إلى أن لا يكون ! ! . . وكأنما عز على أعداء الإسلام أن يكون الإسلام سببا فى خلود العربية ، فهم

يحاولون قلب الناموس ، ليصبح الواقع أن العربية ماتت بسبب اتصالها بالإسلام !

والحق أن المرء يرثى لحال أولئك الناس ، فهم يعانون قطعا آلاما عقلانية ونفسانية هائلة أصابهم بها ثبات العربية والإسلام ، فى توحدهما التاريخى ، أمام ضراوة الحرب الاستشراقية ، وخبث الكيد الذى اصطنعه المستشرقون لفصم هذه العروة الوثقى ، التى هى فى الحق إرادة الله .

غير أن أنطوان مطر يمتاز عن سبيتا بميزة ترجع إلى طبيعة المرحلة التاريخية التى عاش فيها كلاهما ، كما قد ترجع إلى اختلاف تكوينهما العلمى.

إن كلام سبيتا يبدو مقززاً مكشوف العورة أمام كل من يقرؤه ، ولكن كلام أنطوان مطر يتقمص أردية من التحليل اللغوى المغالط ، ومن النزاهة العلمية المزعومة . وقد يتجلى هذا الموقف فى حديثه عن سر الضعف اللغوى فى الحياة العربية المعاصرة ، وأنه راجع إلى ضعف الاتصال بين أفراد المجتمع ، نظراً لما ينشأ عن ( التعدد اللغوى ) الواقع فعلا من اضطراب فى هذا الاتصال فهو يقول :

« وأكثر من ذلك كيف يتحتم تكوين طبيعة هذا الاتصال ؟ وكيف يتكون بناؤه فى مجتمع يكتب لغة دون أن يتحدث بها ، ويتكلم بعدة لهجات ينشأ منها لغات قومية ( كذا ) دون أن تكتب ؟ وما هى فرص البقاء للغة مكتوبة ولا يُتَحدَّث بها فى ختام القرن العشرين ؟ وماذا يبقى من اللغات غير المكتوبة التى يتحدث بها سوى عناصر تاريخية ، وفولكولورية تشمل فى النهاية مجموعة من التقاليد من لوازمها وصفاتها عدم التغير ، والارتباط الشديد بالماضى ؟ » ! !

وواضح أن هؤلاء الذين يستدعون لتناول مشكلة التخاطب فى اللغة العربية ـ كهؤلاء الذين يستدعون لتناول مشكلات التعليم فى عالم المتحدثين باللغة العربية ـ عليهم أن ينظروا فى أول الأمر : التعدد اللغوى الذى يمكن أن يكون على وجه التقريب كما يأتى :

الأدب القديم ( المكتوب الذى لا يتحدث به ) .

الأدب الحديث ( المكتوب الذى لا يتحدث به عن طريق الاتصال بالجماهير ) .

اللهجات ( التى يتحدث بها ولا تكتب ) مثل :

الجزائرية .. السورية .. المصرية .. السعودية .. العراقية .. المراكشية .. الأردنية إلى آخره ..!

وهذا التعدد يؤدى إلى تباعد بين المتحدثين باللغة العربية عن بيئتهم الإنسانية ، ويجعل ظاهرة الامتزاج من الصعوبة بمكان ، وهذا الوجه خاص له أهميته فى مستوى الإعلام الجماهيرى ، فالجزائرى والمراكشى أو التونسى ـ لا يفهم شيئاً من اللهجات المصرية ، أو السورية ، أو اليمنية إلخ ...

وليس من الممكن إدراك الهدف من هذا الكلام عندما يساق هذا المساق العلمى فى الظاهر ، إذا كانت الجهود التى يبذلها هؤلاء هى لعلاج مشكلة الاتصال الجماهيرى ، التى هى جوهر المشكلة اللغوية .

وإذا كانت العربية القديمة الفصحى ميتة جامدة متخلفة فى نظرهم ـ فماذا يمكن أن تحققه اللهجات المتعددة ، أو اللغات المتعددة ، فى تحسين عملية الاتصال الجماهيرى ، مادام العرب لا يفهم بعضهم بعضا لهجيا ؟ .

إن اللجوء إلى استعمال اللهجات يعنى بالضرورة خلق كيانات منعزلة مستقلة ، بعدد اللهجات المختلفة ، وهو أيضاً باب من احتمال التمزق العربي إلى كيانات أصغر ، كلما أحست مجموعة من الناس باختلاف لهجتها عن لهجة شركائها فى الوطن ، وهذا بالطبع هو ما يريده أعداء العروبة والإسلام ، من أول سبيتا إلى آخر أنطوان ..!!

ثم إن هناك أمراً آخر هو التهويل فى تصور الفروق اللهجية ، بحيث تصير اللهجات لغات قومية ، متميزاً بعضها عن بعض ، كتعدد اللغات الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية ، من بنات الفصيلة اللاتينية وهكذا ، وهو أمر يرفضه الواقع ويفضحه ، إذ أن الشعوب العربية تعيش طوال تاريخها حالة من الاتصال الجماهيرى من خلال اللغة الفصحى ، لم تضعف عبر القرون ، بفضل القرآن الكريم ، ولقد حكمت العالم الإسلامى ، العربى وغير العربى ، دول كثيرة ابتداء من الدولة الأموية ، ثم العباسية فى المشرق ، والأموية فى المغرب وأسبانيا ، ثم الفاطمية ، والأخشيدية ، والطولونية ، والأيوبية ... إلخ ، وتفاهم المسلمون عبر هذا التاريخ حول مشكلاتهم الرئيسية المشتركة ، دون أدنى اضطراب فى أداة الاتصال ، التى كانت هى هذه الفصحى . مع وجود اللهجات العامية المحلية .

فما الذى وقع حديثا حتى تضعف أداة الاتصال ، ونحن فى عصر المواصلات السلكية واللاسلكية والكهرباء والترانسيستور ، والصحافة والتليفزيون . والمفروض أن تذلل هذه الوسائل صعوبات الاتصال ، وتساعد على نشر الوعى اللغوى ؟ .

ثم إن القرآن ما زال هو هو ، مقروءا ، ومحفوظا ، ومكتوبا ، ومرفوعا على أنه شعار يلهم الجماهير ، ويقود تحركها نحو المستقبل ؟ .

فتعدد اللهجات فى الوطن العربى الواحد ليس عقبة فى طريق التوحيد اللغوى ، لأنه مطروح جانباً أمام دواعى التقارب والاندماج ، والوسيلة الوحِدَةُ لتأكيد هذا التقارب والاندماج هو تناسى أمر اللهجات ، وما تثيره أحيانا من مشكلات ، والالتفات إلى نشر الفصحى ، ودعم وجودها ، ومحو الأمية التى تعوق انتشارها ، وبذلك يمكن تحديد نوعية الاتصال الجماهيرى بما يخدم أهداف الوحدة العربية ، والمستقبل الاسلامى .

أعداء الفصحى :

واضح إذن أن ولهلم سبيتا ، وأنطوان مطر يمثلان قوسين أولهما فى أول قرن يبدأ فى عام ١٨٨٠م ، عندما نشر كتابه ( قواعد اللغة العامية فى مصر ) ، وإن كان قد بدأ قبل ذلك طبعاً ، وثانيهما فى أواخر هذا القرن عندما نشر مقاله عام ١٩٧٤ .

وبين هذين القوسين تقع مجموعة من الأسماء التى وعتها ذاكرة هذه المشكلة ، وأشارت إليها الدراسات الخاصة بها ، والتى سبق أن لفتنا النظر إليها .

فما إن ظهر كتاب سبيتا حتى انبرت صحيفة ( المقتطف ) التى كان يصدرها الصحفى يعقوب صروف منذ عام ١٨٧٦م ـ لتشجيع دعوته إلى نبذ الفصحى ، وأخذ العامية لغة لكتابة العلوم ، فضلا عن أن تكون لغة للصحافة مثلا .

وكانت هذه خطوة ذات مغزى فى تناول المشكلة ، لأن العلوم هى الميدان الذى قصرت فيه العربية آنذاك ، بسبب الحصار الاستعمارى الذى ضرب حولها .

وبعد سبيتا ظهر مستشرق آخر ألمانى هو كارل فولرس (١٨٥٧-١٩٠٩) ، وقد عمل أيضاً كسلفه فى مجال الكتب ، فكان أمينا للمكتبة الخديوية بالقاهرة ، وألف عدة كتب أو رسائل فى العامية المصرية ، وأشهرها كتابه : ( اللهجة العامية الحديثة فى مصر ) .

ثم يأتى مستشرق ثالث ، وهو فى هذه المرة إنجليزى ، اسمه وليم ولكوكس ( ١٨٥٢ - ١٩٣٢ ) . وقد كان الرجل مهندساً فى الانشاءات الهيدروليكية ، وهو الذى أشرف على تخطيط وبناء خزان أسوان عام ١٨٩٨م .

والعجيب أن نجد هذا المهندس يخوض فيما خاض فيه أسلافه من مخطط العداء الفصحى ، رغم أن عمله وتخصصه لا يؤهلانه لمثل ما قال ، ولكنه الهدف الواحد الذى يجمع الأشتات ، ولعل قراءة النص التالى تكشف عن معدنه الخداع .. يقول ولكوكس فى إحدى محاضراته :

« قضيت عشر سنوات حين كنت فى خدمة الحكومة المصرية وأنا أشرف على مدرسة الهندسة ، وأمتحن طلبتها ، وكنت أجد بين الطلبة من يعدون حقا من الأذكياء ، ولكنهم كانوا يسيرون فى دروسهم ببلادة ، لأنهم كانوا يقرأونها باللغة الفصحى المصطنعة ، وليس باللغة المصرية الحية » !

ويردد فى أثناء أحاديثه : « إن الذى عاق المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى » ، « وإن اللغة العربية الفصحى ماتت بسبب جمودها وصعوبتها » !!

ويبدو أن هذه الحملة على الفصحى من الزاوية العلمية كانت التمهيد السياسى لاستيلاء المستشار الإنجليزى ( دنلوب ) على التعليم فى مصر ، وتغليب الإنجليزية فى جميع مراحل التعليم .

ثم يتقدم المخطط خطوة أخرى بما يكتبه القاضى سلوف ولمور ، وقد كان يعمل فى محاكم مصر ، فقد ألف كتابا بعنوان ( العربية المحلية فى مصر ) ، ودعا فيه إلى اتخاذ الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية ، واتخاذ اللاتينية لغة أدبية .

وهكذا يظهر لنا التدرج فى تقديم الاتفاق الاستعمارى ضد لغة القرآن ، فقد بدأ المخطط متدرجا هكذا :

١ — العربية صعبة ـ جامدة ـ ميتة ..

٢ — العربية ليست لغة للعلوم ..

٣ — الانجليزية لغة التعليم ..

٤ — لابد من تبنى الرموز اللاتينية فى الكتابة العربية ..

٥ — يجب اتخاذ اللاتينية لغة أدبية ، كما أصبحت الإنجليزية لغة للتعليم ..

وما زلنا حتى الآن نواجه شخوصا وأشباحا أجنبية ، من الألمان ، والإنجليز ، ذكرنا رءوسهم ، وأعرضنا عن أذنابهم ، يسيرون فى نفس الاتجاه العدوانى للغة القرآن .

ولكن هؤلاء لم يعملوا وحدهم ، بل استطاعوا أن يجندوا لهم عملاء فى مصر ، وفى لبنان ، كانوا وما زالوا مصرين على ترديد كلام سادتهم من الأجانب العدوانيين ..

ومن أخبث الرؤوس التى حملت كِبْرَ هذه الدعوة فى الصحافة المصرية ـ الصليبى الماركسى الحاقد سلامة[1] موسى ، وقد بدأ أولا فى مقاعد المصفقين لمقالات ومحاضرات السير ولكوكس ، وكان فى مقالاته يخلط جهلا وهذيانا وحقداً ، يمثله أصدق تمثيل قوله :

( وقد خطب السير ولكوكس منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة (العامية) جمع فيها اختباراته عنها ، وارتأى فيها أن هذه العامية التى نتكلمها فى مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى ، فكل منهما لغة متميزة عن الأخرى ، ونحن

(١) وصف المستشرق الفرنسى جاك بيرك سلامه موسى بأنه ماركسى ـ انظر ترجمتنا لمقدمته لكتاب ( مختارات من الأدب العربى المعاصر ) المنشورة فى مجلة المجلة ـ عدد سبتمبر ١٩٦٦ .

لم نكتبها عن العرب ، وإنما نزلت إلينا من الهكسوس ( ! ) الذين أقاموا فى مصر نحو ٥٠٠ سنة ، وأن طريقة النفى المزدوج حين نقول : (أنا ماعملتش) هى طريقة لا يعرفها العرب ، وإنما جاءتنا من الهكسوس ، الذين انتشرت لغتهم فى أقطار عدة حول مصر ، حتى بلغت مالطة ، وهذه اللغة تعبر الآن عن مزاجنا ، وتقوم بالمعانى التى تختلج فى أذهاننا ، أما اللغة الفصحى فهى ( الهيروغليفية ) التى يترجم كتابنا وطلبتنا إليها خواطرهم وأفكارهم ، كما ينقلونها أحيانا إلى الانجليزية أو الفرنسية ، ويرطنون بألفاظها المحفوظة من الكتب ) !! أىّ هذيان !! ؟؟

وقد وقف سلامه موسى بعد ذلك داعية إلى نبذ الفصحى ، رغم أنه كتب كل آثاره بها ، والسر فى ذلك أنه كان فى الواقع ( ممثلا ) يلعب أدوراً كثيرة فى الحياة المصرية لحساب هدفه الهدام ، فهو يرفع الصليب ، ويقدس المنجل والمطرقة ، ويعزف القداس الفرعونى فى الدعاية لأمجاد الوطنية المصرية القديمة ، ثم يتلوى بأى كلام يوصله إلى هدفه ، وينفس به عن حقده على العروبة والإسلام . . !

وهو أحياناً يبدو فى صورة المستغل لغفلات الآخرين ، كما حدث حين قال « إن التأفف من اللغة الفصحى ليس حديثاً ، إذ هو يرجع إلى ماقبل ثلاثين سنة ، حين نعى قاسم أمين على اللغة الفصحى صعوبتها » .

ولقد كان قاسم أمين تعرض فى بعض كتاباته لقضية اللغة : فدعا مرة إلى تدعيم اللغة العربية بتحرير أسلوبها على أقلام الكتاب ، من التصنع والتكلف ، فهو يقول « الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات فلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لأن ذلك يكون حشواً فى الكلام مستهجناً ، ودليلا على فقر فى الفكر والخيال » .

ودعا مرة أخرى إلى فتح باب الاجتهاد فى اللغة : « فإذا أتحنا للغة العربية أن تستوعب المصطلحات الأوربية الجديدة الخاصة بالاختراعات أثرينا اللغة. وإذا انتقينا من العامية الكلمات الفصيحة ، أو التى لها أصل عربى فصيح — لم نحتج إلى الاشتقاق والنحت ، فنحن خلفاء العرب ، وما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربياً » .

وليس فى هـــذه الآراء مايمس إيمان قاسم أمين بالعربية وقدرها ، ومستقبلها .

ولكن قاسم أمين تحرك خاطره يوما عندما رأى كثرة اللحن فى ضبط الكلمات ، فدعا إلى نوع من الإصلاح اللغوى ، قال فيه :

« لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل مايقع تحت نظره من غير لحن ، أليس هذا برهاناً على وجوب إصلاح اللغة العربية ، لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال ، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لاتتحرك بأى عامل من العوامل ، بهذه الطريقة وهى طريقة جميع اللغات الأفرنكية ، واللغة التركية ، يمكن حذف قواعد النصب ، والجوازم ، والحال ، بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة ، إذ تبقى مفرداتها كما هى .

« فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ . . . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون » .

وواضح أيضاً أن قاسماً لم يرد التخلى عن الفصحى ، إنما أراد إصلاح وضع معين ثقافى ، فأخطأ الوسيلة ، ولكن سلامة موسى يرى أنه دعا إلى العامية بهذا الرأى ، تصيداً منه للمتشابه ، وتحميلا للنصوص بأكثر مما تحتمل .

لقد كان سلامة موسى — كما سبق القول — صليبياً ماركسياً غوغائياً مشككا ، وتحت هذه الأقنعة كلها يمكن أن نفهم قوله فى كتابه ( اليوم والغد ) :

« الرابطة الشرقية سخافة ، والرابطة الدينية وقاحة ، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربا » ! !

إنه لا يرى فى مقومات وجود أمته سوى أن تكون ذيلا لمستعمريها ، بكل مايترتب على ذلك من قضاء على الإسلام ، وعلى اللغة ، وعلى العروبة ، ومن عجب أن يعتبر بعض كتابنا هذا المتلون الحاقد الجهول من دعاة الإصلاح !!

وإذا كان سلامه موسى أثراً شائهاً من آثار الجهود الاستعمارية ضد العربية والإسلام ، فإنه قد أثر فى كثير من الأذناب الذين بدأوا حياتهم يدعون إلى ما كان يدعو إليه ، وفى مقدمتهم لويس عوض الهازل بعفاهاته من خلال عمله بجريدة الأهرام والمسترسل فى أباطيله ، وضلالاته الخاسرة إلى اليوم ! !

وشبيه بموقف قاسم أمين فى أوائل القرن العشرين — موقف كاتب معاصر ، هو الأستاذ يوسف السباعى الذى نشر مقالا فى مجلة الرسالة الجديدة ( مايو ١٩٥٥ ) يطالب فيه بالتخلص من قواعد النحو والصرف ، ربما لأنه لم يستوعبها حتى الآن ، برغم اشتغاله بالأدب ، ورغم حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى أدب اللغة التى لا يعرف نحوها أو صرفها . هذا فى مصر .

* * *

أما فى لبنان : فقد عرف من هؤلاء الدعاة اللعامية الخورى مارون غصن ، وهو مبشر حاقد على الإسلام ولغة القرآن .

ومن بنى جلدته رجل آخر هو أنيس فريحة . .

وثالث هو سعيد عقل ، ولعله أنشطهم الآن ، إذ هو يحمل لواء الدعوة إلى سلخ لبنان بلغته أو بلهجته من جسد العروبة ، واتخاذ الرموز اللاتينية فى كتابتها ، وهو يتربع على قمة مؤسسة لطبع الكتب بالخطة الجديدة ، وتتولى الإنفاق على مشروعه مؤسسات أمريكية وصهيونية . ! !

وأخيراً هل نستطيع ـ والحال هذه ـ فصل الدعوة إلى استخدام العامية فى لغة المسرح ، بإطلاق عن هذه القضية ذات الجذور البعيدة ، وبخاصة إذا حمل لواءها ناس معروفون بمعتقداتهم الماركسية ، ودعوتهم إلى ما يسمونه بالواقعية ، فى اللغة ، وهو تحريف لمعنى الواقعية فى الفن . . ؟ !!

خلاصة القضية :

وبعد : فقد طال الشوط الذى بدأناه ، وكنا نؤمل أن لا يطول على هذا النحو ، ولكن للضرورة أحكام ، وضرورة استيعاب هذه المشكلة تقتضى أكثر مما قدمنا ، فهو إذن إيجاز حيث ينبغى الإسهاب .

بيد أن لنا بعض الملاحظات فى ختام هذا الشوط :

أولها : أنه قد اتضحت للقارىء المسلم طبيعة الصراع الذى يقف فيه المسلمون مدافعين عن الدين والفصحى والقرآن ضد الأعداء المتربصين من كل أرجاء الأرض .

ثانيها : أنه قد انكشفت حقيقة هؤلاء الأعداء ، وأسفرت نواياهم ، وهى بعيدة تماماً عن هدف الإصلاح اللغوى ، الذى لا يمكن أن يتحقق إلا فى إطار الفصحى .

ثالثها : أن هؤلاء الداعين إلى إصلاح الوضع اللغوى ليسوا لغويين . وإنما هم خليط من الوراقين أمناء المكتبات ، ومن المهندسين ، وخبراء الاستعمار ، وعملائه ، فكلامهم فى مشكلة اللغة غير مقبول شكلا أو موضوعاً .

رابعها : أن أحداً منهم لم يتفضل علينا بتجربة كتابة أدبه أو فكره بالعامية ، لنرى كيف يخرج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ ، لأنه يعلم مقدماً أن مصير ما يكتبه حينئذ هو إلى المزابل لا غير !!!

وخامسها : أن أعداء القرآن ركزوا حملتهم على مصر أولا ، ثم كانت لهم جولة فى لبنان . لأن مصر هى قلب الوطن العربى ومنارة التوحيد فى العالم الإسلامى . .

وسادسها : لقد ركز الأعداء حملتهم وهجماتهم على العربية ، حتى كأنها هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تستحق مثل هذا الهجوم ، لا لشىء إلا لأنها لغة القرآن .

وسابعها : نحن نسنا ضد دراسة اللهجات كواقع لغوى ، ولكنا ضد محاولة تمزيق الأمة العربية بتقطيع علاقتها بالفصحى ، وهى المقوم الأساسى لأية وحدة عربية إسلامية .

وأخيراً ، فإن من المؤكد أن هذه الدعوات لا تزال رغم قوة التيار القومى والدينى راصدة لفرص الغزو ، ناشطة فى إثارة الشكوك ، والأمل فى الله أن ينزل نصره على دعاة دينه ، وحماة قرآنه تحقيقاً لوعده الصادق .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ( الحجر آية ٩ ) .

* * *